كنز من كنوز الجاحظ

أربع رسائل من رسائله

— ٣ —

الرسالة الثانية من رسائله الأربع

عنوان هذه الرسالة (كتمان السرّ وحفظ اللسان) افتتحها بقوله (أما بعد فاني تصفحت أخلاقك وتدبرت اعراقك الخ) ويظهر أن المخاطب في هذه الرسالة ليس من طبقة من وجّه اليه الخطاب في الرسالة الأولى اي انه ليس من طبقة القضاة ولا من طبقة الوزراء فقد جاء في خطابه له قوله (قد ناهزتَ الكمال . وأوفيتَ على التمام .... وقاربتَ أن تُلفى عديم النظير) فيكون المخاطب من اخوانه الذين يُخلص لهم الود . ويجب أن لا يفرط منهم ما يعابون به أو تلحقهم السبّة بسببه . وقد بلغ الجاحظ عن ذلك الصديق أمران نقمها منه (وضع القول في غير موضعه . وإضاعة السر بإذاعته) وقوله (وضع القول في غير موضعه) هو ما عبّر عنه في عنوان الرسالة بحفظ اللسان فان من يحفظ لسانه لا يضع القول إلا في الموضع الذي يحسن فيه القول . فهذان الأمران من صديقه ساءه أن يعاب بهما . ويُزرَى عليه بسببهما . فرأى من دواعي الاخلاص في الود أن يُمحضه النصح . ويُسرع اليه بالإيقاظ . فوضع له هذه الرسالة واصفاً فيها قبح (إفشاء الأسرار) وسوء مغبته وحسن (حفظ اللسان) وسلامة عقبته — وصفاً يتمنى المرء معه لو أنه خُلق أخرس أبكم كي يُكفى ما وصَفَ من سوء العواقب وشر الحصائد .

قال الجاحظ : سمع بهرام في الليل صوت طائر فتتبع صوته ورماه بسهم وهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لايراه فصرعه ولما صار بين يديه قال (والطير أيضاً لو سكت كان خيراً له) .

وقد تشعبت بالجاحظ طُرُق الكلام في تهجين الخلتين المذكورتين حتى انتهى الى الغيبة وقبح أثرها وفضيلة الإعراض عنها . فأنعم القول في أشكالها . ومختلف صورها . وسائر ما له علاقة بها إلى حدّ أن سوّغ الغيبة لمن يغتاب غيره أحياناً . وجعل له العذر في ما يرتكب منها . ثم عاد فأشبعه تقريعاً على الذلّ الذي يلحقه من جرّاء الاعتذار (على أن أكثر من يُعتذر اليه ليس بقابل للعذر وان اظهر القبول : لما جرّبه من سخاء الناس بالأيمان وبعدهم من الاقرار بالذنب ... ولا حسم لهذا الداء الا باطّراح الفضول) وعد الجاحظ من فضول الغيبة الضحك والابتسام فانهما أحياناً يقومان في الاغتياب مقام الكلام أو أشد تأثيراً واكثر إغراء وتحريضاً . وذكرُ الله يكون أحياناً مؤكداً للغيبة محققاً لها (كما اذا رفع صوته عند غيبة أحد بقوله (لا حول ولا قوة إلا بالله) او (غفر الله لنا وله) كأنه يقول (ما تقولونه في الرجل حق فأنا ادعو الله بأن يعفو عن مسيء اعماله) .

ولما جاء دور الكلام على إفشاء الأسرار أبدع الجاحظ في تصوير قبحها . ووجوب تنزيه النفس عنها . وبالغ في التحذير — ليس بأن يملك المرء لسانه فقط — بل بأن يملك (لحظ عينيه وسَحَنة وجهه . وتغير لونه وتبسّمه أو قطوبه) فإن كل ذلك قد يُنبه المرجّمين والمتعقبين إلى معرفة السرّ ويدلهم على حقيقة الأمر : فالأسرار قد تُفهم من الأساريرِ . كما تفهم من الجمل والتعابير .

وهل اقتصر الجاحظ من التحذير على هذا القدر ووقف عنده ؟ كلا ! فإنه فوق ذلك حذّر من الكتب (أي التحاريرِ) المتبادلة بين الناس المتضمنة لأسرارهم :

(ورب كلام قد ملأ بطون الطوامير قد عُرفت جملته وما فيه الضرر منه بسحاءةٍ أو طابع أو لحظة متطلع في الكتاب أو حرفٍ تبين من ظهره . فاستيقظْ عند هذه الأحوال واستعمل سوء الظن بجميع الأنام) . والطوامير جمع طومار رقوق كانت تكتب فيها الرسائل وتُطوى على شكل خاص ثم تُسمى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بسحاءة أي تمزّق من طرفها ثم يدار القدّ الممزوق على الطومار ويشدّ به فالجاحظ يحذّر صاحب الكتاب الذي اودعه سرّه من ان تكون كيفية طي الكتاب والشد عليه بالقدّ أو الطابع اي الختم المضروب على ظهره أو حرف يتوانى من الكتابة التي في باطنه — كل ذلك يحذر منه الجاحظ لئلا يكون دالاً للمرجمين ومتعقبي الأسرار على مضمون ما في الكتاب ·

هذا ولنقبل على الرسالة فنعالج أبحاثاً لغوية حول بعض ألفاظها تارةً مستحسنين محبذين · وطوراً مؤاخذين مصححين ·

من ذلك قوله ص ٣٨ لا أعرف رجلاً يتحلى بالأدب ويديم الثخانة والزماتة الخ · ثخانة الشيء غلاظته ونقول في اللغة الدارجة سماكته وضد الثخانة اللطافة والرهافة والرشاقة ونستعمل (الثخانة) احياناً (ونلفظ ثاءها المثلثة تاء) بمعنى السماجة وغلاظة الطبع ذماً أما الجاحظ فقد استعملها مدحاً بمعنى الرزانة والوقار · وهذا كالثقالة فانه غلب استعمالها بيننا في الذم مذ نقول فلان ثقيل وكان من المنتظر ان تستعمل مدحاً بمعنى الرزين الزميت الوقور وقد احتال العامة لهذا الاستعمال بتحريف (الثقيل) الى (تقيل) بالتاء المثناة ويفخمونها الى الطاء فيقولون (طقيل) ومهما يكن فإن استعمال الجاحظ للثخانة بمعنى الوقار ليس من الممكن قبوله ولا رواجه بيننا اليوم ·

قوله ص ٣٩ القلب خزانة للأسرار (ولكل ما يعيه ذلك عن الحواسّ من خيرٍ وشرّ) الأولى اسقاط كلمة (ذلك)

وقوله (استعملَ فضول النظر فدعت الى فضول القول) مراده بالنظر التأمل في الشيء والتفكير العميق فيه ومنه قولنا اليوم (النظريّات الفلسفية) و (النظريات العلمية) وهذا النظر العقلي له أحياناً زيادات وتجاوز حد في التأملات التي لا فائدة فيها ولا خير يرجى من ورائها · وهي التي سماها الجاحظ (فضولا) والفضول في الأصل جمع فضل والفضل الزيادة وقال ان هذه الفضول تؤدي الى فضول أخرى وهي فضول القول والتزيد فيه فما أشبه فضول النظر بفضول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحذر - وقد أحسن الجاحظ في تعبير (فضول النظر) ولا بأس أن نحتذيه ونقلده فيه ·

ومثل (فضول النظر) قوله (كَرْبُ الكتمان) فقد ذكر الجاحظ أن بعض الناس اذا حاول الاحتفاظ بسر في نفسه (اعتراه الكرب لكتمان السر · وغشيه لذلك سقم وكمد · يحس له في سويداء قلبه بمثل دبيب النمل · وحكة الجرب · ولسع الدبر · ووخز الأشافي) هذه الحالة النفسية في بعض الأشخاص سماها الجاحظ (كرب الكتمان) فقال في ص ٤٢ (ومما يؤكد هذا المعنى في كرب الكتمان وصعوبته) ثم أعاد هذا التعبير في ص ٤٣ وقد جعل (كرب الكتمان) رذيلة تقابل فضيلة كتمان السر كما ان التهور رذيلة تقابل فضيلة الشجاعة · والبخل رذيلة تقابل فضيلة السخاء · وذكر ابو تمام في باب (الملح) من كتابه (الحماسة) شعراً لبعض الأعراب تشاءم فيه بكرب الكتمان ونصح للناس ان يفشوا اسرارهم ولا يكابدوا عناء هذا الكرب فقال :

(لا اكتم الأسرار لكن أنمّها ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي)

(وان قليل العقل من بات ليله تقلبه الأسرار جنباً الى جنب)

وقال الجاحظ في صدد (كرب الكتمان) ان كتمان السر يصعب على العقلاء (فضلاً عن غيرهم). فقوله (فضلاً عن غيرهم) تعبير كنا نتشاءم به ونعدل عنه الى قولنا (دع عنك غيرهم) واذا هو فصيح وقع في كلام أمير الفصحاء ولعله اول من استعمله ثم تخاطفه الناس من بعده ·

وقال في ص ٤٢ (وكان الأعمش سيئ الخلق غلقاً) الغلق بمنزلة قولنا ضيق الصدر كثير الضجر وهكذا الأعمش فانه كان ضجوراً لا يتحمل ثقالة الثقلاء الذين كانوا يطوفون حوله لطلب (الأحاديث والأخبار) فكان أحياناً يحلف لا يحدثهم الشهر (فاذا حلف ضاق صدره بما فيه وتطلعت الأخبار الى الخروج منه · فيقبل على شاة له في منزله فيحدثها بالأخبار والفقه حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول ليتني شاة الأعمش) ·

وقوله في ص ٤٢ (الزمانة والوقار) صوابه الزمانة بالتاء وهي بمعناه ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي ص ٤٣ يقول إن صاحب السر اذا اراد إفشاءه احياناً (استعهد جليسه واستكتمه) ومعنى استعهد فلان من فلان أن يكتب عليه عهدة أي صكاً فاستعهد منه بمنزلة قولنا اشترط عليه ولا جرم ان من يفشي سر نفسه لا ينفعه الاستعهاد ولا الاشتراط .

وقال أيضاً ان اللوم على مُفشي السر أوجب (وعمن أفضى به اليه أدلّ)

قوله (أدلّ) صوابه (أزلّ) من الزَلَل وهو الزَلَق : زلت رجله زلقت يعني ان اللوم يزلّ ويزلق ولا يعلق بالرجُل الذي أفشي اليه السر . بل ان اللوم يكون أجدر أن يزلق عنه ويسقط . فلا يكون ملوماً بالافشاء ولا مذموماً .

وقوله ص ٤٤ (لا لوم على صاحب الجناية فيه) وصوابه (الخيانة) .

وقوله ص ٤٥ (ما رَطَلتُ بيدي قط احداً أرزن من عبد الملك) رَطَل الشيء رازه بيده مختبراً وزنه وثقله ومنه سمي الرطل رطلاً وقوله (ارزن) اي أثقل وأوقر . وهي حسنة . واحسن منها (أوزن) فلعلها محرفة منها ولا سيما انه قال من قبل (ولو ان أوزن الناس حلماً مَلَك لسانه عن إفشاء السر ما قدر أن يملك لحظ عينيه وتغير لونه) يعني ان السر معرَّض لأن يُفشي ولو عن طريق العين ولون الوجه فأوزن أقرب ان تكون مرادة للجاحظ من كلمة (أرزن) وما أحسن ان يقال : إن مجلة كذا في حاجة الى محرر يكون أوفى وزناً من المحرر الذي لديها ، واتفق وانا اكتب هذا ان قرأت في بعض الصحف قول الكاتب (وستُحلُّ هذه القضية اذا بقي فلان يعمل على حلها بكل وزنه وقوته) .

ثم قال الجاحظ في الرد على من قال (ما رطلت بيدي قط الخ) ما نصه (وهذا هو الغلط البيّن والغدر الملصق) صواب (الغدْر) (العُذْر) يعني انه في قوله (ما رطلت الخ) يعتذر عذراً غير ثابت ولا مكين وانما هو مُلصق قابل للسقوط والانزلاق . و (الغدر) يمكن تأويله غير أن السياق يشهد للعذر .

قوله ص ٤٥ (فيفشو السرّ من هذه الجهات اكثر مما تُفشيه ألسن المذايع المبذر) قوله (المبذر) صوابه (للسرّ) أما المذاييع فهي جمع (مذياع) وهو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي لا يكتم السر يقال (هو للأسرار مذياع . وللأمور مضياع) والمذياع نستعمله اليوم بمعنى آلة الراديو ويجوز ان تُستعمل في المحدّث بالراديو الذي يسمونه (المُذيع) على ان في هذا الاستعمال شيئًا من التسامح إذ ان المذياع وصف لمن لا يكتم السرّ وليس كل ما نسمعه من (الراديو) أسراراً يجب كتمانها .

وقال في ص ٤٧ ان اكثر من يؤتمن على الأسرار يجتهد في إفشائها (حتى ربما كان لا يبلغ في الاذاعة أن يقصد للبلاغة من الرجال المعروف بالنميمة الخ) قوله (لا يبلغ) صوابه (لا يألو) اي لا يقصر وكأن (لا يألو) كانت مكتوبة هكذا (لا يئلو) فحرفت الى (لا يبلغ) وقوله (للبلاغة) لعلها مشددة اللام لافادة المبالغة في التبليغ . لكني لم أجده والقواعد تأباه اذ ليس في اللغه بَلَغَه (ثلاثيًا) بمعنى بلّغه المشدد . ثم ان الجاحظ مثّل للبلاّغة الذي تأتمنه على السر فيذيعه — بعمر بن الخطاب (رض) منذ أسلم واراد التعجيل باذاعة خبر اسلامه فعمد الى أتمّ أهل مكة وهو (جميل بن النُحيت) فأخبره باسلامه وسأله كتمانه فأذاعه من فوره .

واتبع الجاحظ خبر عمر بقوله ان نهيك أحداً عن افشاء السر قد يكون فيه إغراء له بالافشاء قال (والنفس طيّارة متقلّبة تعشق الاباحة وتغرم بالاطلاق) : قوله (طيارة) فى وصف النفس الانسانية لم نسمعه من غيره أي انها تحب التنقل من حال الى حال كالطائر يطير من مكان الى آخر وقوله (الاباحة والاطلاق) أصبحنا اليوم نستعمل مكانهما كلمة (الحرية) فلا يرضى الحر لنفسه أن يتحكم فيه أحد أو يحال بينه وبين ما يريد . وأيد الجاحظ هذا المعنى بقوله (ولعل رجلاً لو قيل له لا تمسح يدك بهذا الجدار وهو لم يمسحها به قط لغرِيَ بأن يفعل) اي لمسحها حبًا بالإباحة والاطلاق .

وقوله ص ٤٨ (الفقر وخوف الاخوان) صوابه خوف الاملاق .

وقوله (وجعل الله نفس الانسان (توّاقة مشتاقة مطرفة ملاّلة) صواب (مطرفة)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طَرِفة ومعناها الرجل الذي لا يثبت على صاحب وهو مأخوذ من قولهم جَمَل طَرِف إذا كان لا يثبت على مرعى واحد .

وقوله ص ٥١ ان نهمة العلم والمال فيها (خروج عن العقل) الظاهر ان يكون مكان (العقل) (العدل) بدليل قوله بعد (لأن النَهم تجاوز القدر)

وقال الجاحظ ليس كل خبر تتناقله الناس يصح ان يوصف بأنه سر أفشي وانما السرّ هو الرائع من الأخبار (والأشنع الأبلق) منها اي ما كان من أمور الناس ووقائعهم أشنعها اي اقبحها . وقوله أبلقها اي اشهرها واندرها . فسرُّ الملوك مثلاً اذا روي كان أبلق ينتشر بسرعة وتتناقله الأفواه بلهف وحرص واصل معنى البَلَق السواد والبياض في لون الخيل والفرس اذا كان بعض جسمه ابيض وبعضه اسود كان نادراً مستغرباً وكان بين الخيل منظوراً وعلى ألسنة الناس مشهورا ثم كُني بالأبلق عن كل ما اشتهر وذاع خبره . وتحدث عنه الناس لندرته ومثل الجاحظ له بسرّ الأديان . وبسرّ الملوك الذين شكا بعضهم تنقيب العوامّ عن اسرارهم فقال :

(ما يريد الناس منا ما ينام الناس عنّا)
(لو سكنا باطن الأر ض لكانوا حيث كنا)
(إنما همّهمو أن ينشروا ما قد دفنا)

وفي ص ٥٥ أفاض في تقبيح فضول الكلام وقد مر ان الفضول جمع فضل بمعنى الزيادة ثم أريد به معنى التزيد في القول والاكثار من الكلام الذي لا فائدة فيه وقد استعملت كلمة (الفضول) الجمع استعمال المفرد ككلمة (الأصول) جمع أصل التي استعملها الأتراك العثمانيون استعمال المفرد أيضاً مذ يقولون مثلاً (اصول جديد) . وقرن الجاحظ كلمة الفضول بكلمة (الكُلفة) و (التكلف) فهو يقول (ومرّ هشام ببعض أهل الكُلفة والفضول) (ولقلّت الفضول والكُلَف والغيبة) (ويتكلّف ما لا يعلم) (ولو تهيأ للمتكلّفين صرامة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لازدجروا) فالعرب يعرفون (الكلفة) بمعنى (الفضول) والمتكلف بمعنى الشخص الكثير الفضول ومنه آية (قل ما اسألكم عليه من أجر وما انا من المتكلفين) اي لا اطلب على القرآن منكم أجرة وما انا من الذين يكثرون من فضول الكلام والخوض في ما لا يعنيني او ليس لي به علم وربما قيل في تفسير الآية غير ما ذكرنا .

وفي ص ٥٦ و ٥٧ خمسة ألفاظ تُعدّ من غريب اللغة بالنسبة الى زماننا ومن الفصيح المألوف بالنسبة الى الجاحظ وزمنه :

١ — (اغتابه وقَصَبه) أي عابه وشتمه .

٢ — (لا مَرْفِق ولا ربح) أي لا منفعة .

٣ — (الكِظَّة بالمعاذير الكاذبه) اي الامتلاء والانتفاخ .

٤ — (ليس هذا الأمر من سُوس النفس الشَهْمة) اي ليس من طبيعتها

٥ — (كثر النَطَف في الناس) العيب والشر والفساد . ونَطَفه عابه .

وقال في ص ٥٧ (نعتذر اليه خوفاً من سقطته . وإبقاء لسلطانه) صواب سقطته سخطته كما قال المصحح وعندي ان صواب (إبقاء) (اتقاء) .

وقال فى ص ٥٨ (أفضل العبادة الصبر) صوابه الصمت بدليل السياق .

وفي ص ٥٩ (او بعظم الجرح الصغير) صوابه الجرم .

وفي ص ٥٣ و ص ٥٩ استعمل كلمة (عين) المؤكدة مضافة لما بعدها فقال (هذا عندي عينُ المذموم) اي المذموم عينه (ولكن العجب عينَ العجب) أي العجب عينه . فلا غرو اذا استعملت (النفس) المؤكدة هذا الاستعمال فيقال مثلاً جئتك في نفس الوقت كما يقال الوقت نفسه .

وفي ص ٦٠ (بعد اجتهاد صاحبه رأيَه) صوابه إجهاد وقوله (ما اجتمع على صاحبه غمُّ الندامة) الأظهر (من غم الندامة) .

انتهى ما اليه أجرينا . وله قصدنا . في التعليق على الرسالة الثانية من رسائل الجاحظ . وسنفي القول حقه على الرسالة الثالثة في العدد القادم

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net